نقد النّقد، المفهوم والإجراء

Metacriticism, Concept and Mechanisms

تاريخ الاستلام: 2019/09/22؛ **تاريخ القبول:** 2020/02/24

د.يمينة بن سويكي *

كلية الأدب واللغات،
جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي،
أم البواقي، الجزائر.

ملخص

يعدّ الاشتغال على نقد النقد مجالا معرفيّا بكرا في الخطاب النّقدي العربي المعاصر، فحين يتأمّل القارئ ما تمّ إنجازه إلى حدّ السّاعة، يجده متميّزا بميزتين اثنتين؛ واحدة تتمثّل في قلّة المؤلّفات من طرف المشتغلين في حقل نقد النّقد، والأخرى تتمثّل في عدم وضوح الرؤية لدى الممارسين لنقد النّقد، ممّا جعل القارئ يتساءل باستمرار عن:- ما هو المفهوم الدّقيق لنقد النّقد؟، ما هو الفرق الجوهريّ بين النّقد ونقد النّقد؟، هل يمكن تحديد إجراءات نقد النّقد كما حدّد من قبل النّقاد إجراءات المناهج النّقدية ؟. هذه الأسئلة هي الّتي تزمع هذه المقالة الإجابة عنها بما توفّر من مراجع ومصادر متخصّصة في الموضوع.

الكلمات المفتاحية: النّقد؛ نقد النّقد؛ المفهوم؛ المنهج.

Abstract

Treating metacriticism nowadays represents a virgin field within contemporary Arab critical discourse. At a time when, thinking about what has been achieved so far, the reader notices that it is characterized by two aspects: -The first resides in the fact that there is a terrible lack of works of metacriticism, -The second finds its explanation in the ambiguity of vision among some researchers in the field of metacriticism. This therefore pushes the reader to ask himself questions more like: -what is the true concept of metacriticism? - What is the difference between criticism and metacritic! - Is it possible to define the mechanisms of metacriticism as was the case for critical methods!

Our present study therefore aims to provide clarifications and answers to the various questions raised above, based on the specialized documentation in our possession.

Keywords: Criticism ;Metacriticism; Concept; Mechanisms.

Résumé

Traiter de la métacritique représente de nos jours un domaine vièrge au sein du discours critique arabe contemporain. Au moment ou , en méditant (pensant) à ce qui a été réalisé jusqu'a présent , le lecteur remarque que celui-ci est caractérisé par deux aspects :- Le premier réside dans le fait du manque affreux des ouvrages de la métacritique- Le second trouve son explication dans l'ambiguité de la vision chez certains chercheurs dans le domaine de la métacritique .Cela pousse donc le lecteur à se poser les questions davantage du type :- Quel est le vrai concept de la métacritique ?- Quelle est la différence entre critique et métacritique ?- Est-il possible de définir les mécanismes de la métacritique comme ça était le cas pour les méthodes critiques ?

Notre présente étude vise donc à apporter des éclaircissements et des réponses aux différentes questions soulevées précédemment, en s'appuyant sur la documentation spécialisée en notre possession.

Mots clés: Critique; la metacritique; le concept; les mécanismes.

* Corresponding author, e-mail: aminabensuiki@hotmail.fr

© جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر 2020.

- مقدمة

منذ القديم جعل العقل العربي الاهتمام بالإبداع ضمن أولى انشغالاته، فبرز النّقد موازيا له، يراقب العمليّة الإبداعية، ويقف عند هفوات الشّعراء، من أجل أن تخرج القصيدة في حلّة بهيّة يفتخر بها الإنسان العربيّ، وعدّ الفصل بين النّقد والشّعر من الأمور غير المستحبة للذّائقة العربيّة، فكثرت المؤلفات النّقدية الّتي كان جلّ همّها نقد الإبداع الشّعري.

إلاّ أنّ المتتبّع للسّاحة النّقدية في الآونة الأخيرة، يلحظ مؤلّفات جديدة فيما يسمّى ب"نقد النّقد"، فما هو مفهومه؟ وفيما يختلف عن النّقد الّذي ألفيناه ينظر في العمليّة الإبداعيّة؟ وما هي إجراءاته؟

1-المفهوم:

قبل التطرّق إلى مفهوم "نقد النّقد"، حري بنا أن نبحث عن تاريخ ظهوره، إذ يعدّ " مصطلح نقد النّقد من المصطلحات الّتي برزت إلى عالم الأدب في القرن العشرين سواء في الأدب العربي الحديث أو في الأدب الغربي، وجلّ الدّارسين الّذين ورد عندهم هذا المصطلح إلاّ وعرّفوه بالشّكل الّذي يتناسب ودراساتهم، أو استعملوه دون تعريفه مستبطنين ذلك المعنى النّقدي للنّقد أي النّقد الّذي يتولّى دراسة الأعمال النّقدية"[1].

لقد تعدّدت تعاريف الدّارسين ل"نقد النّقد" باعتباره مجالا بكرا للاجتهاد والبحث، فذهب "محمّد مريني" إلى تعريفه بقوله: "نقد النّقد خطاب واصف للنّقد؛ إنّه خطاب يجعل من النّصوص النّقدية مدار اشتغاله"[2]. وبما أنّ النّصوص النّقدية هي مدار اشتغال"نقد النّقد"، فإنّه لا ينظر في العمليّة الإبداعيّة، وذلك لأنّ النّقد الأدبيّ قد نظر فيها وقدّم قراءته لها، فالنّقد قراءة حجاجيّة إقناعيّة تخاطب الإبداع، ونقد النّقد قراءة على قراءة تتوسّل الحجاج والإقناع في خطابها للنّقد، معتمدة على تقنية الوصف بشكل بارز.

وإذا بحثنا عن تعريف آخر ل"نقد النّقد"، نجد أحد الدّارسين يؤكّد: "إنّ نقد النّقد عمليّة على جانب كبير من الأهميّة والخطورة، ولا ينهض بها إلاّ ناقد نابغ... بالاستناد إلى الثّقافة الشّاملة والذهنيّة الواسعة والإحاطة الواعيّة بالنّقد كرؤيا كليّة لعمليّة الإبداع في الحياة،..."[3]، فإذا كان مجال النّقد واسعا، يحيط بالإبداع في شتّى مجالات الحياة، فناقد النّقد مجاله أوسع، إذ عليه أن يقدّم معرفة تشمل هذا النّقد على أساس أنّه "إبستيمولوجيا نوعيّة خاصة بالنّقد"[4].

ممّا تقدّم يمكننا القول: إنّ تقديم معرفة على معرفة ليس بالأمر اليسير، بل يحتاج هذا العمل إلى ناقد نقد متمرّس من مجاله، متحكّم فيه، يتمتّع بثقافة واسعة وفي مجالات متعدّدة ليكون قادرا على طرح البدائل المعرفيّة باستمرار، إنّ" مناهج نقد الأدب تعدّ بالنّسبة لنظريّة "نقد النّقد"، الّتي هي أداتنا في التّحليل، بمثابة مورد معرفي يغنيها ويمّدها باللّبنات الأساسيّة لبناء نفسها. والحال أنّ نقد النّقد عندما يتحوّل إلى علم نقديّ أو إلى نقد للعلوم يشبه في ذلك تماما السّيميولوجيا عندما تصبح بدورها علما للنّقد أو نقدا للعلم"[5].

فالتّشابه بين علم نقد النّقد وعلم السّيميولوجيا تشابه كبير؛ يتمثّل في استفادة النّقد من علم السّيميولوجيا (علم دراسة العلامات في الحياة الاجتماعيّة) واستفادة السّيميولوجيا

من النّقد حيث أصبحت تشكّل اتّجاها نقديّا داخل المنظومة النّقدية، أمّا نقد النّقد فهو يفيد النّقد حيث يمدّه بتصويبات نقدية ويكمّل النّقائص المنهجيّة الموجودة في الخطاب النّقدي، كما أنّ النّقد يمدّ نقد النّقد بالخلفيات المعرفيّة والإجرائيّة المتّبعة في الخطابات النّقدية حتّى يسهّل عليه عمليّة نقد النّقد.

2-الفرق بين النّقد ونقد النّقد:

وقبل أن نتعرّف على الفرق بين "النّقد" و"نقد النّقد"، لا بأس أن نعرّج على "تودوروف" الّذي أراد أن يفرّق لنا بين العمليّة الإبداعيّة والعمليّة النّقدية، إذ يخبرنا بأنّ: "النّقد حوار(*)، ومن صالحه الإقرار بذلك علنا، إنّه لقاء صوتين، صوت الكاتب وصوت النّاقد، وليس لأيّ منهما امتياز على الآخر. لكن الحوار غير متناسق لأنّ نصّ المؤلّف مغلق، بينما يمكن لنصّ النّاقد أن يستمّر إلى مالا نهاية"[6]، فمن المعروف أنّ المبدع إذا كتب نصّا، لا أحد يستطيع الإضافة أو الإنقاص من عمله، لأنّه مبدع وحيد لنصّه، يتمتّع بحريّة شخصيّة في ممارسة إبداعه؛ أمّا النّاقد الّذي يقدّم قراءة لذلك الإبداع، فقد يحفّز القرّاء والدّارسين لتقديم عدد من القراءات، فالنصّ الإبداعيّ نصّ مغلق بتعبير "تودوروف"، لكن الخطاب النّقدي خطاب مفتوح يقوم على مبدأ الحواريّة الّتي تخلق لنا ما يسمّى بنقد النّقد.

ومن المعروف أنّ "النّاقد(le critique) يقوم بعمليّات القراءة(lecture) والتّحليل(analyse) والتّأويل(interpretation) والفهم (comprehension) والحكم(jugement)، وهي عمليّات ذهنيّة وذوقيّة تتدخّل فيها القدرات العقليّة والكفاءات الفنيّة عند النّاقد"[7].

تسبق العمليات الذهنية عملية ذوقية، وفي تحديد معنى الذّوق الّذي يحتاج إليه النّاقد، تخبرنا "يمنى العيد" أنّ الذوق المقصود، لا يعني الإحساس العابر أو الذوق العادي الّذي لا يقوى على تبرير اختياره، بل يعني: "ذوق القارئ المدرّب على القراءة، لا الذّوق الفقير، وهي في مجمل الأحوال تغيير يستند إلى النصّ، إنّ القراءة وبقدر ما هي إضاءة للنصّ هي صياغة له"[8].

وما دامت عمليّة النّقد يتدخّل فيها الذّوق والكفاءة الفنيّة، فيحتاج النّقد إلى إعادة قراءة، وقد ندّعي أنّ الاقتراب إلى الموضوعيّة هو سببها أو اختلاف أذواق النّقاد وكفاءتهم هي السّبب في توجيه الفكر إلى نقد النّقد. إلاّ أنّنا حين ننظر إلى تصريحات بعض النّقاد، نجدهم ينظرون إلى النصّ الإبداعيّ بنظرة مختلفة !!! هذا ما نجده في تصريح للنّاقدة "يمنى العيد" : "عملي النّقدي لا يستهدف النصّ الأدبي في حدّ ذاته، إنّما يستهدف تكوين "منهج" للقراءة، قراءة منطقيّة متماسكة معلّلة صادقة في اكتشاف معاني النصّ، في تحديد"توجّه" النّص في تحديد "القصديّة" في النصّ"[9].

ورغم أنّ النّاقدة تتحدّث عن قراءتها الأولى للنصّ الإبداعيّ (مستوى النّقد)، إلاّ أنّها تصرّح بأنّ عملها لا يستهدف النصّ الأدبيّ بقدر ما يستهدف تشكيل منهج للقراءة، فالنّاقدة تراهن على الإجراء أكثر ممّا تراهن على الإبداع، وإذا كان النّاقد حسب "يمنى العيد" يولي عناية بالغة بالإجراء والمنهج حين ينظر في عمل المبدعين، فماذا عن ناقد النّقد؟ بمعنى؛ هل يهتمّ بإجراءات معيّنة وهو يقارب الخطاب النّقدي؟ أم أنّ عمله حرّ لا يتقيّد بأيّ إجراء؟

يجيبنا "حميد لحمداني" عن هذه التّساؤلات موضّحا: "...لاحظنا أنّه قليلا ما تساءل المشتغلون "بنقد النّقد"-وهو الميدان الذّي نريد أن نبحث فيه- عن المنهج الذّي يحتكمون إليه في الدّراسة، ولعلّهم ينطلقون من شعور خفي بالتّعالي يجعلهم يعتقدون تلقائيا بأنّ دراساتهم في غنى عن التقيّد بأيّ منهج مادامت مادة موضوعهم هي النّصوص النّقدية التّطبيقية الصّادرة في أساسها عن مناهج معيّنة"[10].

البحث عن إجراءات واضحة يحتكم لها النّقد هو طموح يشترك فيه ناقد النّقد الأدبيّ، مع النّاقد الأدبي، لما يميّز عمل هذا الأخير من الإجراء الواضح في الأغلب، ولتوضيح الفرق الجوهريّ بين عمل ناقد الإبداع(النّاقد الأدبيّ) ، وناقد النّقد يخبرنا "حميد لحمداني"؛ "أنّ نقد النّقد مرتبط بنقد الإبداع لا بالإبداع ذاته، وعليه فمن الضّروري أن تراعى هذه الحقيقة عند كلّ محاولة للحديث عن منهج نقد النّقد"[11].

وما دام ناقد الإبداع بتطبيقه إجراءات على النصّ الإبداعيّ يقدّم معرفة للقارئ، فإنّ "الموقع الطّبيعيّ لناقد النّقد هو أن يتخلّى عن تبنّي أحد مناهج نقد الإبداع وأن يترك هذا الاختيار لنقّاد الإبداع أنفسهم، لأنّ المجال الحقيقيّ لبحثه الخاص ليس هو المعرفة بل هو معرفة المعرفة" [12].

وبين تقديم معرفة وتقديم معرفة المعرفة حدّ فاصل بين عمليّة النّقد وعمليّة نقد النّقد، لذلك نجد من الدّارسين من اجتهد في تقديم تعريف غير معقّد لنقد النّقد مميّزا له عن النّقد، وذلك بقوله: "يمكن مبدئيا أن نطلق مصطلح نقد النّقد على كلّ كتابة تجعل من النّقد الأدبيّ موضوعا لها"[13]، بهذا التّعريف المبسّط يمكننا تحديد بدقّة مجال النّقد(المتمثّل في الاشتغال على الإبداع بشقيّه الشّعري والنّثري)، ومجال نقد النّقد(المتمثّل في الاشتغال على النّقد الأدبيّ) ولا يمكن لأحدهما تجاوز مجاله والاشتغال في مجال الآخر، لأنّ العمليّة سوف تصبح خليطا معرفيّا لا يمكن تجنيسه.

والمعنى ذاته ذهب ناقد آخر إلى تأكيده مصرّحا بقوله: "إنّ موضوع نقد النّقد ومجال اشتغاله هو النصّ النّقدي، وبالتّالي فإنّ دراسة النصّ النّقدي، بوصفه نصّا ثانيا، تفضي لإنتاج نقد النّقد، باعتباره نصّا ثالثا، هذا يعني، منطقيا، وجود اختلافات وتمايزات بين النصّ الثّاني والنصّ الثّالث، على مستوى سيرورة التشكّل، ومنهجيّة التحقّق"[14]. من خلال هذه الفروقات الواضحة، لم يعد بإمكاننا الخلط بين النّقد ونقد النّقد، باعتبار الحدود المعرفيّة والمنهجيّة التّي اجتهد الدّارسون في وضعها، وتحديد المجال المعرفي أو الحقل التّطبيقي أمران يزيدان من ترسيخ صفتي العلمية والموضوعيّة في العلوم الإنسانيّة. وهو الهدف الذّي وجدناه عند عدد من المشتغلين في مجال النّقد ونقد النّقد من بينهم: "عبد الحكيم الشندودي" حين قال: "يشكّل النّقد الأدبيّ موضوعا لنقد النّقد"[15].

فتحديد موضوع الدّراسة يؤدّي إلى التّحديد المنهجي الذّي يفرض بذاته تحديد الحقل المعرفي،"فكما أنّ النّقد موضوع لنقد النّقد، فإنّ الأدب موضوع للنّقد"[16]، ومن ثمّة يمكننا ترتيب هذه المعارف بحسب اعتمادها على بعضها البعض؛ إذ يأتي الإبداع الأدبيّ في المرتبة الأولى ثمّ النّقد الأدبيّ في المرتبة الثّانية ثمّ نقد النّقد في المرتبة الثّالثة، ولا يمكننا تصوّر غياب أحدهم في هذه الحلقة المعرفيّة؛ فبغياب أحدهم قد يغيب الآخر بالضّرورة.

نقد النّقد هو عمليّة قراءة ثانية تتّكئ على قراءة أولى، القراءتان تشكّلان خطابا نقديا في النّهاية، لكن الفرق الجوهري بينهما يبقى في نقطة الانطلاق؛ فالقراءة الأولى تنطلق من الإبداع، والقراءة الثّانية تنطلق من النّقد الّذي تشكّل حول الإبداع، لقد أصبح واضحا اليوم أنّ "النّقد الأدبيّ أمر يتناول ناحية خاصة من نواحي النّشاط الفنّي –هي ناحية الأدب فحسب-ومن هنا فهو يقتصر على النّظر في الأثر الأدبيّ، ثمّ التحسّس والتذوّق له وإبداء الحكم فيه"[17].

أمّا نقد النّقد، فهو خطاب لا ينظر في الإبداع على الإطلاق، بل وظيفته الأساسيّة والوحيدة هي النّظر في الخطاب النّقدي، ومن الجدير بالتّنويه أن نشير إلى نقطة جدّ بديهيّة؛ لو كان نقد النّقد ينظر في العمل الإبداعيّ، فما الفرق بينه وبين النّقد الأدبيّ؟، ويأتي "محمّد الدّغمومي" الدّارس المتخصّص في نقد النّقد، ليوضّح لنا كيفيّة عمل نقد النّقد بدقّة متناهيّة، إذ يقول: "...ثلاثة أنواع من الخطابات تعمل تحت متن نقد النّقد إضافة إلى متن تنظير النّقد بصفته خطابا رابعا؛ هي:

-خطاب تأريخ النّقد-خطاب تحقيق النّقد-خطاب تعليم(تقريب)النّقد فكلّ خطاب هنا فعل يحرّك النّقد في اتّجاه يكيّفه بصورة ما: إمّا أنّه فعل يريد فهم النّقد في علاقته بشروط تكوّنه: تأريخ؛ وإمّا أنّه فعل يريد فهم النّقد في ضوء قواعد محدّدة للنّقد: تحقيق؛ وإمّا أنّه فعل يريد تطويع النّقد لحاجة عمليّة تعليميّة أو ثقافيّة في الغالب"[18].

إنّنا حين نتأمّل المدوّنات النّقدية نجد أنّ هناك من النّقاد من يعارض "الدغمومي" في النقطة الثّانية؛ والمتمثلة في اشتغال نقد النّقد على قضيّة التّحقيق، إذ "يجب أن نستثني علم التّحقيق ونجعله جانبا، فلا يوجد من داع حقيقيّ يسمح لنا بوضعه في موضع نقد النّقد، حتّى ولو كان الأمر يتعلّق، بالضّبط، بتحقيق المصنّفات النّقدية أو "بتحقيق المفاهيم النّقدية"، ذلك لأنّ عمل ناقد النّقد ليس هو بالضّرورة عمل المحقّق، قد تكون ثمّة نقط التّلاقي، وهي عديدة، كما يمكن أن تكون نقط الافتراق، ومع ذلك لا يمكن اعتبارهما شيئا واحدا"[19].

لكن "الدّغمومي" كما تبيّن لنا سابقا، لم يصرّح بأنّ نقد النّقد والتّحقيق شيء واحد؛ إنّما ذكر وبصريح العبارة "ثلاثة أنواع من الخطابات تعمل تحت متن نقد النّقد...خطاب تحقيق النّقد... "[20]، فتحقيق النّقد ليس هو علم التّحقيق نفسه الذّي يلجأ إليه مؤرّخو التّاريخ، هو تحقيق يشتغل صاحبه في زاوية تحقيق المفاهيم النّقدية وتوظيف المصطلحات النّقدية من طرف النّقاد والنّظريات وتتبّع المناهج النّقدية من أجل إضافة معرفيّة لعمل النّاقد الأدبيّ، وهو ما ذهب إلى تأكيده دارس آخر بقوله: "لا بدّ من التّنبيه في المقام الأوّل إلى أنّ نقد النّقد تفكير معرفيّ، وجد أصلا لتتبّع النّقد الأدبيّ ومدار حركته وطرق اشتغاله، وهذا ما يسمح له بتوسيع أفق عمله عبر رصد

الحركات النّقدية ومرجعياتها ونظرتها للعمل الأدبيّ وما إذا كانت النّظرة صحيحة أم لا. وبموجب هذا سيكون ناقد النّقد ملزما بتفحّص الفكر النّقدي على اختلاف تيّاراته ومشاربه" [21].

ألا يبدو هذا عمل من يشتغل في التّحقيق النّقدي الذّي يعدّ مجالا من مجالات نقد النّقد؟ صراحة لا ندري لماذا وقع "عبد الكريم الشّندودي" في هذا اللّبس؟ فمن جهة جعل من نقد النّقد والتّحقيق النّقدي شيء واحدا، ومن جهة أخرى جعل من التّحقيق النّقدي والتّحقيق التّاريخي شيء واحدا كذلك، وكما هو واضح عند الدّغمومي أنّ عمليّة التّحقيق النّقدي ما هي إلاّ نوع من أنواع نقد النّقد، ويضيف "الدغمومي" إلى خطابات نقد النّقد موضّحا بأنّها "خطابات في الواقع النّقدي العربيّ وغيره، ليس بينها حدود قاطعة وصارمة، بحيث نجد تداخلات وتقاطعات بحكم أنّ المعرفة النّقدية تقتضي تنويع الإجراءات والمقاصد"[22]. بمعنى أنّ خطاب نقد النّقد بإمكاننا أن نجده يلاحق فكرة مرّ عليها زمن من أجل التّأريخ لها، أو التّحقيق فيها، أو التّنظير لها من جديد وتعليمها .

وبعد حديث طويل عن الفروقات الموجودة بين الأنواع الأربعة من الخطابات الّتي تدخل في إطار نقد النّقد، يصل "الدّغمومي" إلى نتيجة مؤكّدا بقوله: "وهكذا يمكننا أن ندّعي أنّ مفهوم "نقد النّقد" إلى يومنا هذا مازال "مفهوما" يشيّد ويبنى. فهو، في بدء الأمر وغايته، مثل كلّ المفاهيم الّتي لها حياة تنتقل من التّسميات والتّصورات العامة، وتمرّ بمراحل الصّقل والاختبار قبل أن تستقرّ على مدلول اصطلاحي مخصّص"[23].

بإمكاننا القول: إنّ نقد النّقد ما يزال مجالا خصبا للدّارسين، وباب الاجتهاد فيه مفتوحا على مصراعيه، نظرا لقلّة الكتابات فيه، مقارنة بما كتب في مجال النّقد الأدبيّ، فهو عبارة عن فكرة ما تزال لم تكتمل بعد، وهي في حاجة إلى الإثراء بالكتابة والبحث والدّراسة، ومع ذلك، نجد أنّ هناك من الدّارسين من حاول وضع مجموعة من الإجراءات الّتي يمكنها أن تجعل من نقد النّقد منهجا.

3-الإجراء(المنهج):

وحسب اطّلاعنا على المراجع والمصادر الّتي حاولت أن تجعل لنقد النّقد إجراءات واضحة تميّزه عن مناهج النّقد الأدبيّ، يكاد يكون النّاقد المغربيّ "حميد لحمداني" على رأس النّقاد العرب الذين قدّموا جهدا من أجل جعل نقد النّقد منهجا يتشكّل من مجموعة خطوات أو إجراءات، وحتّى تتّصف هذه الدّراسة بالموضوعيّة أكثر، فهو يخبرنا في عديد من صفحات كتابه"سحر الموضوع" بأنّه نقل هذه الإجراءات من عند النّاقدة الفرنسيّة "جوهانا ناتالي"(johanna natali) في دراسة قدّمتها عن "قطط بودلار"(a propos des chats de baudelaire)، [**] وصدرت الدّراسة عن دار نشر فرنسيّة، تتشكّل هذه الإجراءات من ثمانية عناصر حسب ما نقله "حميد لحمداني" ؛ وتتمثّل في:

-أ/ الأهداف: ويقصد بها تتبّع "ناقد النّقد" للنّاقد الأدبيّ في تحقيق هدفه من الدّراسة الّتي هو بصدد إنجازها[24].

-ب/ المتن: تحديد متن الدّراسة يعدّ عمليّة أساسيّة في مجال نقد النّقد[25].

-ج/ الممارسة النّقدية: ويعمل ناقد النّقد على تبيّن مدى مطابقة خطوات التّحليل مع الاقتراحات النظريّة، مركّزا على إبداء التّقصير والانحراف والخطأ[26].

-د/ الوصف: وصف عمل النّاقد حسب ما هو موجود في الدّراسة وتتدخّل في هذه النّقطة ثقافة ناقد النقد[27].

-ه/ التّنظيم: الوقوف على اختيار الزّاوية الّتي ينظر منها النّاقد للنصّ[28].

-و/ التّأويل: وقد لا نجده في جميع المناهج، فالبنيويّة مثلا ترفضه[29].

-ز/ التّقويم الجمالي: قد يستند إلى معايير علم الجمال، قد يلجأ الدّارس إلى تحقيقه عن طريق المقارنة بين العمل المدروس وأعمالا أخرى، وقد لا يوليه عناية على الإطلاق[30].

-ح/ اختبار الصّحة: هو آداة ضروريّة بالنّسبة لناقد النّقد، يمكن أن يصاحب جميع الخطوات السّابقة، سواء تعلّق الأمر باختبار صحّة المعلومات النظريّة الّتي اعتمدها النّاقد، ومراقبة مدى شموليّة التّحليل وفحص سلامة النّتائج الّتي تمّ التوصّل إليها. ويلجأ ناقد النّقد إلى هذا الإجراء في الحالات الّتي يعتمد فيها النّاقد على نصوص محدّدة، حتّى يتفادى متاهة القراءة المضادة لقراءات نقّاد الأدب[31](***)

وليس "حميد لحمداني" النّاقد الوحيد الّذي حاول التّنظير لإجراءات نقد النّقد والتّطبيق لها، بل هناك ناقدة أنثى تدعى"آراء عابد الجرماني"، الّتي صدر لها كتاب سنة 2012 يحمل عنوان: اتّجاهات النّقد السّيميائي للرّواية العربيّة، وأوّل خطوة قدّمتها النّاقدة أنّها قسمّت إجراءاتها إلى ثلاث أقسام؛ الأوّل عنونته بالغايات والثّاني عنونته بالمتن والثّالث عنونته بالإجراء النّقدي.

ثمّ جعلت لكلّ قسم عناصر دقيقة؛ فالقسم الأوّل(الغايات) ضمّ أربعة عناصر تتمثّل في: عتبة الكتاب/ المنهج/المصادر والمراجع/ المصطلح . أمّا القسم الثّاني(المتن) فيضمّ عنصرين فقط ألا وهما: طبيعة المتن المدروس وكذا توزيعه أثناء الدّراسة. وأمّا القسم الثّالث(الإجراء النّقدي) فيضّم ثلاث عناصر: التّصنيف/ التّنظيم/ أحكام القيمة[32].

والملاحظ على هذه العناصر الإجرائية أنّها لا تخرج عمّا قدّمه "حميد لحمداني" إلاّ بشيء من التّفصيل، لا سيّما في الإجراء الأوّل(الغايات)؛ والتّي ضمّنتها "الجرماني" عناصر عتبة الكتاب والمنهج والمصادر والمراجع والمصطلح، وهي عناصر يمكن أن نصفها بأنّها تعريفية؛ تخدم القارئ حيث تعرّفه بالكتاب المدروس أكثر ممّا تقدّم له نقدا أو معرفة نقديّة .

وعلى العموم فالمتأمّل لهذه الخطوات يجدها لا تخصّ منهجا نقدّيا بعينه، بل هي صالحة للتّطبيق على كلّ المناهج، وإذا أعدنا التّأمل في تلك الخطوات الثمانيّ، نجد أنّ لها علاقة ب:" المنطلقات المنهجيّة المعتمدة في نقد النّقد وأنّها لا تخرج عن واحدة من الخيارات المنهجيّة التّالية: -المقاربة الوصفيّة-المقاربة الإيديولوجيّة-المقاربة الإبستيمولوجيّة"[33]. فلا يمكن لدراسة أن تلغي أهميّة الوصف، لأنّه يسبق التّحليل والتّأويل حتما، ثمّ أنّه لكلّ مبدع أو دارس إديولوجيا معيّنة ينطلق منها ويسعى لتحقيقها سواء بممارسة الإبداع أو النّقد، ثمّ تأتي المقاربة الإبستيمولوجيّة؛ لأنّ كلّ مبدع أو دارس –من المفروض- يتغيّا تقديم معرفة معيّنة تخصّ الفكرة الّتي يكتب عنها وينافح لأجلها.

ومن الضّروري أن نصرّح قبل أن ننهي هذه الدّراسة بأنّنا "لا نتّفق مع قضيّة المطابقة بين خطابي النّقد ونقد النّقد من جهة اصطناع الأدوات نفسها، بالنّظر لمجال اشتغالهما المختلف بالضّرورة، ولكن نتّفق مع قضيّة توظيف اللّغة الواصفة"[34]، وقد تكون اللّغة الواصفة هي المشترك الوحيد بين المشتغلين في دائرة الإبداع أي (المبدع، النّاقد، ناقد النّقد)، وكلّ يوظّفها حسب حاجته إليها.

إنّ ناقد النّقد "يواجه النصّ النّقدي بحمولة معرفيّة قبليّة، فيظهر ممتلكا لمعرفة نظريّة مرتبطة بالأجناس الأدبيّة، وبطبيعة الفاعلين في الممارسة النّقدية (النّقاد)، وبأنواع الخطابات النّقدية، وما يستدعيه ذلك من معارف تهمّ آلياتها التّنظيمية وخلفياتها الفلسفيّة وأجهزتها المفاهيميّة وإطاراتها المنهجيّة"[35]؛ وبذلك فعمل ناقد النّقد واسع جدّا ويستدعّي ثقافة أوسع، فليس بمقدور أيّ ناقد القيام بهذا العمل، وعليه أن يضع نصب أعينه موقعه الطّبيعي الّذي يستدعي " أن يتخلّى عن تبنّي أحد مناهج نقد الإبداع، وأن يترك هذا الاختيار لنقّاد الإبداع وحدهم، لأنّ المجال الأساسيّ لبحثه ليس هو معرفة الأدب، بل هو معرفة الكيفيّة الّتي نعرف بها الأدب" [36].

وبين معرفة الأدب(عمل النّاقد) ومعرفة الكيفية الّتي يعرف بها الأدب (عمل ناقد النّقد) ترسم الحدود واضحة بين مجال النّقد ومجال نقد النّقد. وقبل الوصول إلى خاتمة هذه الدّراسة قد يعود القارئ للتّساؤل من جديد عن جدوى نقد النّقد، بمعنى هل كان ظهوره ضروريا للنّقد مثلما كان ظهور النّقد ضروريا للأدب؟

تتدخّل الناقدة "الجرماني" لتجيب عن التّساؤل المطروح مؤكّدة أنّ الحاجة " تبدو ملّحة لأن يسائل النّقد العربي الحديث مرجعياته ومكوّناته بين حقبة وأخرى، لعلّه يعزّز ما أفاد وأثمر، يعرض عمّا لم يتمكّن من الإفادة منه، نتيجة إشكال في هذا الاتّجاه أو ذاك، أو لعدم التمكّن من الإفادة منه كما يجب"[37] .

ومن ثمّة يمكننا أن نجزم بأنّ تتبّع نقد النّقد للمنجز النّقدي أمرا ضروريا وعلى قدر كبير من الأهميّة الّتي قد تعادل ضرورة وأهميّة تتبّع النّقد للعمل الأدبيّ حتّى يتطوّر الإبداع ويرتقي الأدب.

-خاتمة:

من خلال ما تقّدم نخلص إلى نتيجة واضحة؛ ثمّة ضرورة التّفريق بين النّقد الأدبيّ ونقد النّقد، أو بين عمل النّاقد وعمل ناقد النّقد، إذ يهتمّ الأوّل بمعاينة الإبداع، ويهتمّ الثّاني بمعاينة العمل النّقدي، ويبقى الفضل الأوّل للمبدع الّذي حرّك قريحة النّاقد للدّراسة، هذا الأخير الّذي يملك الفضل الثّاني لأنّه حرّك قريحة ناقد النّقد للدّراسة الثّانية.

وبذلك ننهي كلامنا بأنّ للإبداع مؤسّسة رقابة؛ تحرصه ليتطوّر ويتجدّد باستمرار، وهي المنظومة النّقدية(الأدبيّة)، هذه الأخيرة الّتي أصبحت لها مؤسّسة أخرى تحرص إجراءاتها وتصوّب نقائصها، والمتمثّلة في منظومة نقد النّقد، والّتي نراها تمضي قدما في التّأسيس لكيانها بفضل الجهود المبذولة من طرف القائمين عليها يوما فيوما.

الإحالات والهوامش:

(1) _ عبد الكريم الشّندودي: نقد النّقد حدود المعرفة النّقدية، إفريقيا الشّرق، المغرب،(دط)،2016، ص17.

(2) _ محمّد مريني:(نقد النّقد في المفهوم والمقاربة المنهجيّة)، علامات في النّقد، النادي الأدبي الثقافي، جدّة، السعودية،ع 64، مج16، صفر1429ه/فبراير2008، ص40.

(3) _ إبراهيم رمّاني: أوراق في النّقد الأدبي، دار الشّهاب، باتنة، الجزائر، ط01، 1985، ص18،19.

(4) _ محمّد الدّغمومي: نقد النّقد وتنظير النّقد العربي المعاصر، منشورات كليّة الآداب، الرّباط، المغرب، ط01، 1999،ص 118.

(5) _ حميد لحمداني: سحر الموضوع، عن النّقد الموضوعاتي في الرّواية والشّعر، مطبعة آنفو-برانت، فاس،المغرب، ط02، 2014، ص 15.

(*)–يقترح سامي سويدان تسميّة كتاب تودوروف ب: "حوار نقدي" بدلا من نقد النّقد في ترجمته لكتاب تودوروف: نقد النّقد، ص12.

(6) _ تزقيتان تودوروف: نقد النّقد، ترجمة: سامي سويدان، منشورات مركز الإنماء القوميّ، بيروت، لبان، ط01، 1986، ص147،148.

(7) _ محمّد أديوان: النصّ والمنهج، دار الأمان، الرّباط، المغرب، ط01، 2006، ص65.

(8) _ يمنى العيد: في مفاهيم النّقد وحركة الثّقافة العربيّة، دراسات وحوارات، إعداد وتقديم: محمّد دكروب، دار الفارابي، لبنان، ط01، 2005، ص177 .

(9) _ المرجع نفسه، ص 143.

(10)_ حميد لحمداني: سحر الموضوع، ص05.

(11)_ المصدر نفسه، ص07.

(12) _ المصدر نفسه،الصفحة نفسها.

(13) _ محّمد مكاكي:(الخطاب النّقدي العربي من النّقد إلى نقد النّقد)، مجلّة دراسات أدبيّة، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية،الجزائر،ع 05، ربيع الأوّل 1431ه، فيفري2010، ص95..

(14) _ عبد الرّحمن التّمارة: نقد النّقد بين التصوّر المنهجي والإنجاز النّصي، كنوز المعرفة، لأردن، ط01، 2017، ص16.

(15) _ عبد الحكيم الشندودي: نقد النّقد وحدود المعرفة النّقدية، إفريقيا الشّرق، المغرب،(دط)، 2016، ص27.

(16) _ المصدر نفسه، ص41.

(17) _ جبرائيل سليمان جبّور: كيف أفهم النّقد، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط01، 1993، ص46.

(18) _ محمّد الدّغمومي: نقد النّقد وتنظير النّقد العربيّ المعاصر، منشورات كليّة الآداب، الرّباط، المغرب، ط01، 1999، ص11.
(19) _ عبد الحكيم الشّندودي: نقد النّقد، حدود المعرفة النّقدية، ص19.
(20) _ محمّد الدغمومي: نقد النّقد وتنظير النّقد العربي المعاصر، ص11.
(21)_ عبد الحكيم الشندودي: نقد النّقد، حدود المعرفة النّقدية، ص26،27.
(22) _ محمّد الدغمومي: نقد النّقد،حدود المعرفة النقدية، ص61.
(23) _ المصدر نفسه، ص113.
(**) – لم نجد سنة صدور كتاب: جوهانا ناتالي، الّذي قد يعدّ حسب رأينا أوّل كتاب يضع إجراءات واضحة لنقد النّقد.
(24)_ ينظر حميد لحمداني: سحر الموضوع، ص17.
(25) _ المصدر نفسه، ص18.
(26) _ المصدر نفسه، ص19.
(27) _ المصدر نفسه،ص20.
(28)_ المصدر نفسه، ص21.
(29) _ المصدر نفسه، ص21.
(30)_ المصدر نفسه، ص22،23..
(31)_ المصدر نفسه،ص24،25.
(***) – نشير إلى أنّ الإجراءات ذاتها ظهرت أولّ مرّة عند حميد لحمداني في كتابه: النّقد الرّوائيّ والإيديولوجيا من سسيولوجيا الرّواية إلى سوسيولوجيا النصّ الرّوائي،الصّادر عن المركز الثّقافي العربي، لبنان، المغرب، ط01، 1990، ص121-179.
(32) _ينظر آراء عابد الجرماني:اتّجاهات النّقد السّيميائي للرّواية العربية، منشورات ضفاف والاختلاف، لبنان والجزائر، ط01، 2012، ص05-08.
(33) _ محمد مريني:(نقد النّقد: في المفهوم والمقاربة المنهجية)، علامات في النّقد، النادي الأدبي الثقافي، جدّة، السعودية،ع 64، مج 16، فبراير2008، ص42، 43.
(34)_ عبد الرحمن التّمارة: نقد النّقد بين التصوّر المنهجي والإنجاز النّصي، ص29، 30.
(35)_ المصدر نفسه، ص24.
(36) _ حميد لحمداني: سحر الموضوع، ص10.
(37)_ آراء عابد الجرمان: اتّجاهات النّقد السّيميائي للرّواية العربيّة، ص11.